الصبر والأناة وسعة الأفق والتسامح والرغبة الصادقة فى التعاون وتقريب وجهات النظر . فإذا عجزنا أن نحمل السوفيات وحلفاءهم والدول الغربية على التسامح والتنازل عن بعض الخلافات الحادة ، فلن يجدى جدلنا هذا نفعاً . ويجب كذلك أن نسعى لتقريب وجهات النظر فى المبادىء الجوهرية بين حضارة الغرب وبين حضارات الشرق وبين الأنظمة القانونية التى تختلف جوهرياً فى العالم الأنجلو سكسونى مثلا عنها فى العالم اللاتينى .

وناشد الدكتور كريم عزقول مندوب لبنان اللجنة بأن توافق على الميثاق لتعيد إلى الإنسانية المبلبلة الفكر المتوترة الأعصاب إيمانها بالقيم الروحية ومكانة الفرد وعزته .

ولا تزال اللجنة تواصل النقاش حول مواد الميثاق

(بيويورك)

عمر هليل

سكرتير معهد الشؤون العربية الأمريكية

فاتح الأسطول المصرى فى عهد صلاح الدين :

حســـــام الدين لؤلؤ

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

حسام الدين لؤلؤ من جند مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، أعجب صلاح الدين بشجاعته ، فأسند إليه قيادة الأسطول ، وكان السلطان قد عنى بأمر الأسطول ، وأفرد له ديوانا خاصاً ، وعين للانفاق عليه موارد ثابتة ، فكان الاختيار موفقاً ، لأن حسام الدين كان شجاعاً خبيراً بالبحر والقتال فيه ، فسار النصر فى ركابه ، وصاحب خطاه النجح والتوفيق ، وسجل له التاريخ معارك انتصر فيها على الفرنج عند ساحل الشام .

وكان صلاح الدين يرسل إليه كى يهاجم أسطول الفرنج حيناً ، أو يحول بينه وبين إيصال المدد إلى من بالشام من الصليبيين حيناً آخر ، أو ليضطر جيشهم إلى الدفاع عن الساحل بينما صلاح الدين يهاجم جيوش الفرنج بالبر ، فيلزم عدوه أن يقسم قوته ، ويصد هجومين فى وقت واحد معاً ، وهكذا كان الأسطول وعلى رأسه لؤلؤ إحدى يدى صلاح الدين وجناح جيشه .

واشتهر لؤلؤ فى معركة عكا ، وساهم فيها بالنصيب الأوفى ، فعند ما حاصرها العدو سنة ٥٨٥ أرسل صلاح الدين فى طلب الأسطول فقدمت منه خمسون قطعة على رأسها البطل البحرى ، فانقض على أسطول الصليبيين وبدده ، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من الأموال والرجال والغلال ، وقويت نفوس أهل المدينة بقدوم الأسطول واستظهروا برجاله على العدو ، وكانوا زهاء عشرة آلاف ، وظل الأسطول يكافح فى المعركة ، يحارب حيناً ويجلب المسيرة والأمداد حيناً آخر .

وكان مما خلد ذكر هذا القائد ما دار بينه وبين الصليبيين فى البحر الأحمر سنة ٥٧٨ ، ذلك أن صاحب الكرك ، وهو من ألد أعداء المسلمين ، وأشدهم نكاية فيهم ، فكر فى مهاجمة المسلمين فى البحر الأحمر ، ظنا منه أنهم غير مستعدين فيه ، وتأديباً لحامية أيلة التى كانت تغير عليه ، ولا سبيل له عليها ، لأنها تقيم بقلعة فى جزيرة وسط البحر ، فبنى سفناً ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، وجمعها فى أسرع وقت ، وشحنها بالمحاربين وآلات القتال ، وسارت السفن وقد افترقت فرقتين : أقامت إحداهما على حصن أيلة تحصره وتمنع أهله ورود الماء ، فأصاب حاميته شدة وضيق ، ومضت الثانية ، وهى فرقة فدائية ، إلى عيذاب فأحرقوا فى البحر ستة عشر مركباً ، وأخذوا فى الثغر مركباً كان يأتى بالحجاج من جدة ، كما أخذوا فى البر قافلة كبيرة كانت قادمة من قوص إلى عيذاب وقتلوا جميع أفرادها ، واستولوا على مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع بمثلها فى الإسلام ، فقد فاجئوا الناس على حين غفلة فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجزاً ولا محارباً . وأرادت الحملة أن تقطع طريق الحج ، فقد كانت الغزوة فى شهر شوال سنة ٥٧٨ ، وأن تمضى إلى المدينة المنورة لتنبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنقل جسده الشريف إلى بلادها ، وتدفنه هناك ، ولا تمكن المسلمين من زيارته إلا بجعل . فسارت الفرقة إلى بلاد الحجاز ، وجاء الخبر إلى مصر ، وبها الملك العادل نائباً عن أخيه صلاح الدين ، فأمر قائد الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ أن يتبع هؤلاء الغزاة ، فأخذ الأسطول وانقض على محاصرى أيلة انقضاض العقاب وقاتلهم فقتل بعضهم ، وأسر الباقى .

ثم مضى إلى عيذاب وأخذ يتتبع مراكب العدو حتى عثر عليها بعد أيام ، فأوقع بها ، وأطلق المأسورين من التجار فيها ، ورد عليهم ما أخذ منهم .

ورأى العدو قد أوغلوا فى طريق المدينة حتى لم يبق بينهم

وبينها إلا مسافة يوم ، فمضى خلفهم على خيل أخذها من الأعراب وحاصرهم هناك فى شعب لا ماء فيه ، حتى استسلموا ، فقتل أكثرهم وأرسل بعضهم إلى منى ليقتلوا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ، وعاد بالباقين إلى مصر .

فكان لدخولهم يوم مشهود ، وطيف بهم فى القاهرة والإسكندرية ، ورآهم ابن جبير بالإسكندرية وقد تجمع الناس حولهم ، عند ما أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق .

وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل يثنى على أمير البحر ويغبطه ، ويأمر بقتل أسراه ، ويقول له على لسان القاضى الفاضل : ... وقد غبطناه بأجر جهاده ، ونجح اجتهاده ، ركب السبيلين براً وبحرا ، وامتطى السابقين مركبا وظهرا ، وخطا فأوسع الخطو ، وغزا فأنجح الغزو ، وحيذا العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق ، والمال الذى فى هذه الكرة أنفق ؛ وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها ، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ... ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم ، بحيث لا يعود منهم مخبر يدل على عورات المسلمين » .

وأرسل صلاح الدين بنبأ هذا النصر إلى بغداد ، وانتهى الأمر بقتل الأسرى ، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة .

خلدت هذه المعركة ذكرى بطلها ، وأقبل الشعراء يشيدون بذكره ويمجدون جهاده ، فأنشأ أبو الحسن بن الدروى أشعاراً كثيرة يمدحه بها ، منها قوله يصف أسرى المعركة :

من يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرور الجاد
إذا أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم فى طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
هذا لؤلؤ يصيد الأعادى ... وسواه من اللآلى يصاد

وقوله يصف هذا الجهاد :

يا حاجب المجد الذى ماله ... ليس عليه فى الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤاً عندما ... صحت من البحر له نسبه
لله ما تعمل من صالح ... فيه وما تطهر من حسبه
كفيت أهل الحرمين العدا ... وذدت عن أحمد والكعبه

كما قال فيه الرضى بن أبى حصينة المصرى يخاطب الفرنج :

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر فى البحر لا يخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم ... فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

ويظهر أن صلاح الدين والعادل قد أغرقا العطاء على القائد المقدام فأثرى ثراء ضخما .

غير أنه لم يشأ أن يستأثر وحده بهذا الثراء ، فإنه بعد أن زوج بناته ، وكن أربعا وجهزهن بجهاز كاف ، وأعطى ابنيه ما يكفيهما ، شرع يتصدق بما بقى معه على الفقراء ، قال العماد الكاتب : ومن دلائل سماحه ما شاهدته بالقاهرة ، فى سنة إحدى وتسعين من مبرانه الظاهرة ، أنه لما حط القحط رحله ، ... وتم الغلا ، وعم البلاد ، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها ، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثنى عشر ألف رغيف ، فإذا أصبح جلس على باب الوسع الذى فيه حشر الفقراء ... فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف .

وكان هذا دأبه فى هذا الغلاء ، حتى هب رخاء الرخاء ، فحينئذ تنوعت صدقاته ، واستغرقت بالصلاة أوقاته ؛ وكان بهى الشيب ، نقى الجيب ، قد جعل الله البركة فى عمره ، وخصه مدة حياته بإمرار أمره ، فأنجده فى أوان ضعفه بتضعيف بره » .

وكان هذا الكرم مثار إعجاب الشعراء كذلك فمدحه ابن الدروى بقوله :

ابن كنت من ذا البحر يا لؤلؤ العلا ... نتجت ، فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه ... فإنك من بحر السماح أخيه

وفى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٩٦ وارت مصر التراب بطلا من أبطالها ، وقائداً من أبرع قوادها ، قال عنه العماد وهو يؤرخ وفاته :

كان فى الأيام الصلاحية أشجع الشجعان ، وأفرس الفرسان ، وله مقامات فى الغزاة ، ومواقف مع العداة .

(حلوان الحمامات) **أحمد أحمد بدوى**

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع .

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين حـ ٢ ص ٣٥ و٣٦ و١٤٨ و ٢٤٠ .
(٢) خطط المقريزى حـ ٣ ص ١٣٨ .
(٣) شذرات الذهب حـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٩ .
(٥) الكامل لابن الأثير جـ ١١ ص ٢٢١ وحـ ١٢ ص ٢٠ .
(٦) السلوك للمقريزى حـ ١ ص ٩٣ و ١٠٢ .